القرآن والروح

البحث فى الروح من أقدم الأمور التى شغلت الناس منذ العصور الموغلة فى القدم ، وقد طال فيها الخلاف بين رجال الدين والفلاسفة والصوفية وعلماء النفس ، وقد اتفق أغلبهم على وجودها ، وعلى أنها إذا طهرت وقويت منعت صاحبها عن الدنايا ، وأعطته قوة غير قوة العضلات والأعضاء ، ثم اختلفوا فيما وراء ذلك : ما أصل الروح ؟ ما حقيقتها ؟ من أين جاءت ؟ وكيف تحيا وتقوى ؟ وأين تذهب حين تعود ؟ . . . إلخ .

والبحث هنا لا يريد أن يدخل فى متاهات هذا الخلاف ، أو سراديب تلك الفروق ، وإنما يحاول أن يعطى تعريفاً للروح فى ضوء الإسلام ، مستعيناً فى ذلك بالقرآن والسنة وأقوال الأئمة والحكماء ، ولا شك أن هذا التعريف إذا جاء على وجهه فيما نأمل ، وصاحَبَه شىء من التفصيل فيما نحاول،فسيعاون الدارس على أخذ صورة واضحة المعالم للأمور الأساسية التى تتعلق بالبحث فى الروح .

وأول خطوة ينبغى أن نخطوها هى أن نعرف مفهوم كلمة « الروح » فى اللغة التى نبحث بها ونعبر ، وهى اللغة العربية لغة القرآن ، فإذا عدنا

إلى معجماتها وجدناها تقدم إلينا أكثر من معنى لكلمة الروح ، فالروح هى النفس ، أو ما به حياة النفس ، أو خَلْق من خلق الله لم يعط علمه لأحد ، أو النَّفَس - بفتح الفاء - الذى يتنفسه الإنسان . . . إلخ .

ولكنا نلاحظ أن أصل مادة « الروح » فى لغة العرب يدل على الحركة والمسير ، ومن ذلك قولهم : راح يروح ، أى سار فى أى وقت كان ، ولعل ذلك يتصل باشتقاق كلمة « الريح » من المادة ،لأن الهواء متحرك فى الطبقات المحيطة بالأرض ، والحركة هى المظهر الأساسى للحياة ، ومن هنا أطلقوا كلمة « الروح » على ما به حياة الإنسان . وقال الأصفهانى فى « مفردات القرآن » إن الروح اسم للجزء الذى تحصل به الحياة والتحرك واستجلاب المنافع واستدفاع المضار ، وقال ابن الأثير فى « النهاية » : الروح هو الذى يقوم به الجسد،وتكون به الحياة .

وقد حفلت المراجع والمصادر العربية بطائفة من التعريفات للروح ، فقيل :هى جسم هوائى فى القلب ، أو هى جزء فى الدماغ لا يتجزأ ، وقيل :هى جسم لطيف بخارى يتكون من لطافة الأخلاط وبخاريتها ، وقيل : إن الروح لطيفة سارية فى البدن سريان ماء الورد فى الورد ، باقية من أول العمر إلى آخره ، لا يتطرق إليها تحلل ولا تبدل ، حتى إذا قطع عضو من البدن انقبض ما فيه من تلك الأجزاء إلى سائر الأعضاء .

واختار بعضهم هذا التعريف : الروح الإنسانى جوهر مجرد ، ليس بداخل العالم الجسمانى ، ولا خارجه ، ولا متصل به،ولا منفصل عنه ، ولكنه متعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف ، يدركه العقل ولا يبلغه الحس ، وهذا الجوهر هو أكرم ما فى الإنسان .

وأغلب التعريفات للروح - إن لم تكن جميعها - تعتمد على التعبير

عن الخواص والآثار والمظاهر ، ولا تقدم الكُنْه أو الحقيقة ، وكأن العلماء بهذا يريدون أن يقولوا : إننا نستطيع أن نبحث فى الروح وسلطانها ، وبدئها ونهايتها ، وتأثيرها وآثارها ، وخصائصها وظواهرها ، ولكن حقيقة جوهرها مستورةٌ محجبة ، وإن ثار فينا حب البحث عنها والجرى وراءها ، ولعل هذا هو الذى جعل الواسطى يقول : « خلق الله الأرواح من بين الجمال والبهاء ، فلولا أنه سترها لسجد لها كل كافر » ! .

* * *

ونسعى إلى كتاب الله عز وجل ، لنتعرف إلى حديث الروح فيه :

نجد القرآن الكريم قد استعمل كلمة « الروح » فى أكثر من معنى .

استعملها تارة للدلالة على ذلك السر الإلهى الذى يودعه الله تعالى جسم الإنسان فيحيا به ، فقال فى سورة السجدة : « وبدأ خلْقَ الإنْسان مِنْ طِينٍ . ثمَّ جعَلَ نَسْلَهُ من سُلالة منْ ماءٍ مهين . ثمَّ سوَّاهُ ونفخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وجَعَلَ لكُمُ السَّمْعَ والأبْصارَ والأفْئِدةَ قليلاً ما تشْكُرُون » . (الآيات من ٧ ٩).وقال فى سورة الحجر : « وإذْ قالَ ربُّك للملائكة إنِّى خالقٌ بشراً مِنْ صَلصالٍ مِنْ حمإٍ مسْنُونٍ . فإذا سَوَّيْتُهُ ونَفَخْتُ فِيهِ منْ رُوحِى فَقَعُوا لهُ ساجدينَ » (٢٨ ، ٢٩). وقال عن مريم فى سورة الأنبياء : « والَّتى أحْصَنتْ فرْجَها فَنفخْنا فِيها مِنْ رُوحِنا وجَعلْناها وابْنها آية للعالَمِين » . (الآية ٩١).وقال فى سورة التحريم : « ومرْيَمَ ابْنَة عمْرانَ الَّتى أحْصَنَتْ فرْجَها فَنَفخْنا فِيهِ منْ رُوحِنا وصدَّقتْ بِكلماتِ ربِّها وكُتبِهِ وكانَتْ مِنَ القانِتِينَ » . (الآية ١٢).

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على جبريل عليه السلام ، وسماه تارة « روح القدس »، وتارة « الروح الأمين » . فقال

فى سورة البقرة : « وآتينا عيسى بن مريمَ البينات وأيدناه بروح القدس » (الآية ٢٥٣) . وقال فى سورة المائدة « إذْ قالَ اللهُ يا عِيسَى بْنَ مريمَ اذْكر نِعْمتى عليك وَعَلَى والِدَتِكَ إذْ أيّدتُكَ بروح القُدُس » . (الآية ١١٠) وقال فى سورة النحل : « قُلْ نزّلهُ رُوحُ القُدُس مِنْ ربِّكَ بالحقِّ ليُثبّت الّذِين آمنُوا وهُدًى وبشرى للمسلِمينَ » . (الآية ١٠٢) .

وقال أهل التفسير إن روح القدس هو جبريل ، وهو روح الوحى الذى يؤيد به الله تعالى أنبياءه فى عقولهم ومعارفهم ، وسمى روح القدس لأن التعليم الذى يكون به مقدس ، أو لأنه يقدس النفوس ، أى يطهرها .

وقال القرآن أيضاً فى سورة الشعراء : « وإنّه لتنْزِيلُ ربِّ العَالمِين . نَزلَ به الرُّوحُ الأمينُ ، عَلَى قلْبِكَ لتكُون مِنَ المنْذِرينَ » (الآيات ١٩٢ - ١٩٤).وقال أيضاً عن جبريل وهو يتحدث عن مريم فى سورة مريم : « فاتَّخذتْ مِنْ دُونِهِم حجاباً فأرْسلْنا إليْها رُوحَنا فتمثَّلَ لها بشراً سَوِيًّا » . (الآية ١٧) .

واستعمل القرآن الكريم كلمة « الروح » أحياناً للدلالة على بعض الملائكة ، أو على صنف من الملائكة له مكانة وشرف ، فقال فى سورة المعارج : « تَعْرجُ الملائكةُ والرُّوحُ إليْهِ فى يومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ ألف سنَةٍ » . (الآيـة ٤). وقال فى سورة النبأ : « يوْمَ يَقومُ الرُّوحُ والملائكةُ صفًّا لا يتكلَّمونَ إلاَّ مَنْ أذنَ لَهُ الرَّحمنُ وقالَ صَواباً » (الآية ٣٨) . وقال فى سورة القدر : « تنزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ فِيها بإذْنِ رَبِّهِمْ منْ كلِّ أمرٍ » . (الآية ٤) .

واستعمل القرآن « الروح » بمعنى القوة والتأييد من الله ، فقال فى سورة المجادلة : « أُولئك كَتَبَ فى قُلُوبِهمُ الإيمانَ وأيَّدهمْ برُوحٍ مِنْه » .

(الآية ٢٢). وقال فى سورة النساء : « إنَّما المسيحُ عيسَى بنُ مَرْيمَ رسُول اللهِ وكلمتُهُ ألْقاهَا إلى مريمَ وروحٌ مِنْه » . (الآية ١٧١) أى ذو روح ، أى ذو قوة وهبه الله إياها فاستطاع بفضل من الله أن يصنع بهـا المعجزات .

واستعمل القرآن كلمة « الروح » للدلالة على وحى الله ، أو على كتابه المجيد ، وهو القرآن المجيد . فقال فى سورة النحل : « يُنزِّلُ الملائكةَ بالرُّوحِ مِنْ أمْرِه عَلى مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ أنْ أنْذِرُوا أنَّه لا إلهَ إلاَّ أنا فاتَّقون » (الآية ٢) . وقال فى سورة غافر : « رَفيعُ الدَّرجات ذُو العَرْش يُلْقى الرُّوحَ مِنْ أمْرِهِ علَى مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِهِ لينْذِرَ يَوْمَ التلاقِ » (الآيـة ١٥). وقال فى سورة الشورى وهو يريد القرآن الكريم : « وكذلكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً منْ أمْرِنا ما كُنْتَ تدْرى ما الكتابُ ولا الإيمانُ ولكنْ جَعَلْناهُ نوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عبادِنا ، وإنَّك لَتَهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتَقيم » (الآية ٥٢) . وقال فى سورة الإسراء : « ويَسْألُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أمْرِ ربِّى وما أُوتِيتُم من العِلْمِ إلاَّ قليلاً » (الآية ٨٥) .

ولعل هذه الآية الكريمة هى أكثر الآيات القرآنية ترديداً على الألسنة للدلالة على الروح بمعنى السر الإلهى الذى يودعه الله الإنسان فتكون به الحياة والحركة ، مع أن المراد بالروح فى هذه الآية - حسبما يلوح من سياقها - هو القرآن الكريم ، لأن هذه الآية جاءت وسط آيات تقول :

« ونُنَزِّلُ مِنَ القُرآنِ ما هو شِفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ ، ولا يَزيدُ الظَّالمينَ إلاَّ خساراً . وإذَا أنْعمنا عَلَى الإنْسان أعْرَضَ ونأى بجانِبِهِ ، وإذا مَسَّه الشَّرّ كانَ يئوساً . قلْ كلٌّ يعْملُ على شاكِلَتِه فربُّكُمْ أعْلَمُ بمَنْ هُوَ أهْدَى سَبيلاً . ويسْألُونَكَ عن الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ منْ أمْرِ ربِّى ، وما أوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلاَّ قليلاً . ولئن شِئْنا لنذهَبَنَّ بالَّذِى أوْحَيْنا إلَيْك ثم لا تَجِدُ لَك بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً . إلاَّ

رحْمةً من ربِّك إنَّ فضْلهُ كان عليْكَ كَبيراً . قُلْ لَئِنِ اجْتَمعتِ الإنْسُ والجنُّ علىَ أنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هذا القُرْآن لا يأتونَ بِمِثْلِه ، ولو كانَ بعْضُهم لبعْضٍ ظهيراً . ولقَدْ صرَّفْنا للنَّاسِ فى هذا القُرْآنِ مِنْ كلِّ مثلٍ فأبَى أكثرُ النَّاس إلاَّ كُفُوراً » .

(لآيات من ٨٢ - ٨٩)

هكذا مضت الآيات فى مسيرتها ، وهى فى أولها ووسطها وآخرها تتحدث عن القرآن أو تشير إليه ، وهذا يرجح أن المراد بالروح الوارد هنا هو القرآن المجيد ، لأنه شبيه بالروح فى إحياء النفوس ، ولأنه سبب الحياة الأخروية السعيدة الباقية .

ويؤيد الإمام الرازى فى تفسيره أن المراد بالروح ها هو القرآن ، فيقول فيما يقول : « تسمية الله القرآن بالروح يدل عليه قوله تعالى : (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) وقوله : (ينزل الملائكة بالرُّوح مِنْ أمْره) . وأيضاً : السبب فى تسمية القرآن بالروح أن بالقرآن تحصل حياة الأرواح والعقول ، لأن به تحصل معرفة الله تعالى ، ومعرفة ملائكته ، ومعرفة كتبه ورسله . والأرواح إنما تحيا بهذه المعارف ، وتمام تقرير هذا الموضع ذكرناه فى تفسير قوله : (ينزل الملائكة بالرّوح مِنْ أمْره) » .

ثم يضيف قوله : « اللائق بهذا الموضع هو القرآن ، لأنه تقدمه قوله : (وننزِّلُ من القرآن ما هو شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنين) والذى تأخر عنه قوله : (ولئنْ شِئْنا لنذْهبنَّ بالَّذى أوْحَينا إليْكَ) إلى قوله : (قل لئِن اجْتمعت الإنْسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثْل هذا القُرْآن لا يأتون بمثله ، ولو كانَ بعْضهم لبعضٍ ظهيراً) فلما كان ما قبل هذه الآية فى وصف القرآن ، وما بعدها كذلك ، وجب أيضاً أن يكون المراد من هذا الروح القرآن ، حتى تكون آيات القرآن كلها متناسبة متناسقة » .

* * *

وقد ثار خلاف حول تحديد العلاقة بين « الروح » و « النفس » : أهما شيء واحد أم متغايران . وقد قيل فى النقاش إن الروح إذا اتصلت بالبدن صارت نفساً . وقيل : بل النفس شيء آخر غير الروح ، لأن النفس هى المعنى الجامع لقوتى الغضب والشهوة ، ومن هنا قال القرآن : « إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بالسُّوءِ » . وقال الحديث النبوى : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » .

وحين نعود إلى القرآن نجده قد أطلق « النفس » أحياناً على « الروح » كما فى قوله تعالى فى سورة الأنعام : « ولَوْ تَرَى إذِ الظَّالِمونَ فى غَمَراتِ المَوْتِ والملائِكَةُ باسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُم » (الآية ٩٣) . ويقول فى سورة الفجر : « يا أَيَّتُها النَّفْسُ المطْمَئِنَّةُ ، ارْجعى إلى ربِّك رَاضِيةً مَرْضِيَّةً ، فَادْخُلِى فى عِبادِى وادْخُلِى جنَّتِى » (الآية ٢٧) . ولعل هذا هو الذى جعل الأصفهانى يقول : « وجعل الروح اسماً للنفس ، وذلك لكون النفس بعض الروح ، كتسمية النوع باسم الجنس » .

ولكن هناك آيات أخرى يراد فيها بكلمة « النفس » ذات الإنسان ، كقوله تعالى فى سورة الإسراء : « ولاَ تقْتُلوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بالْحقِّ » (الآية ٣٣) . وقوله تعالى فى سورة الأنعام : « وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَكُم مِن نفْسٍ واحدةٍ فمُسْتَقرٌّ ومُسْتَوْدعٌ » (الآية ٩٨) .

* * *

والمفهوم من الحديث الصحيح لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تبارك وتعالى يرسل ملكاً إلى الجنين فى بطن أمه « فينفخ فيه الروح » ، ولا تستوقفنا هنا حقيقة الطريقة التى يتم بها هذا النفخ ، فباطن ملكوت الله

الخفى أكثر من مشاهد كونه المنظورة أو المحسة ؛ ولكن الذى يستوقفنا هنا هو : أكانت الروح موجودة قبل الجسم ، أم وُجدت معه ، أم وُجدت بعده ؛ وهذا الموضوع أيضاً كان مثار نقاش طويل بين علماء الإسلام ، فبعضهم رأى أن الروح لا بد أن تكون سابقة فى الوجود على الجسد ، بل علا بعضهم وقال إن الروح قديمة ، وذهب فريق إلى أن الروح سبقت الجسد فى الوجود ، ويؤكد الإمام ابن تيمية أن الروح الآدمية مخلوقة محدثة ، أوجدها الله تعالى ، ويؤكد الإمام أن ذلك موضع اتفاق بين سلف الأمة وأئمتها .

وتفرع عن هذا النقاش أيضاً حوار حول طبيعة الروح : أهى جسد أم لا . ولقد توسع الإمام الرازى فى بحث هذا الموضوع ، وأقام حججاً عقلية وسمعية على أن الروح ليست جسداً ، ومما قاله فى هذا الشأن وهو لا يفرق بين الروح والنفس :

الحجة الأولى : قوله تعالى (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) ومعلوم أن أحداً من العقلاء لا ينسى هذا الهيكل المشاهد ، فدلَّ ذلك على أن النفس التى ينساها الإنسان عند فرط الجهل هى شىء آخر غير هذا البدن .

الحجة الثانية : قوله تعالى : (أخرجوا أنفسكم) وهذا صريح فى أن النفس غير البدن ، وقد استقصينا فى تفسير هذه ، فليرجع إليه .

الحجة الثالثة : أنه تعالى ذكر مراتب الخلقة الجسمانية ، فقال : (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَكِينٍ) إلى قوله : (فكسونا العظامَ لَحْماً) ولا شك أن جميع هذه المراتب اختلافات واقعة فى الأحوال الجسمانية . ثم إنه تعالى لما أراد أن يذكر نفخ الروح

قال : (ثم أنشأناهُ خلقاً آخَر) ، وهذا تصريح بأن ما يتعلق بالروح جنس مغاير لما سبق ذكره من التغيرات الواقعة فى الأحوال الجسمانية ، وذلك يدل على أن الروح شيء مغاير للبدن .

فإن قالوا : هذه الآية حجة عليكم ، لأن الله تعالى قال : (ولقَدْ خَلَقْنا الإنْسانَ مِن سُلالةٍ من طينٍ) وكلمة (من) للتبعيض . وهذا يدل على أن الإنسان بعض من أبعاض الطين . قلنا : كلمة (من) أصلها لابتداء الغاية ، كقولك : خرجت من البصرة إلى الكوفة ، فقوله تعالى : (ولقد خَلَقْنا الإنْسانَ من سُلالةٍ من طِينٍ) يقتضى أن يكون ابتداء تخليق الإنسان حاصلا من هذه السلالة ، ونحن نقول بموجبه ، لأنه تعالى يسوّى المزاج أولا ، ثم ينفخ فيه الروح ، فيكون ابتداء تخليقه من السلالة .

الحجة الرابعة : قوله (فإذا سوَّيتهُ ونفخْتُ فيه من رُوحى) : ميَّز تعالى بين البشرية وبين نفخ الروح ، فالتسوية عبارة عن تخليق الأبعاض والأعضاء ، وتعديل المزاج والأشباح ، فلما ميز نفخ الروح عن تسوية الأعضاء ، ثم أضاف إلى نفسه بقوله : « من روحى » دلّ ذلك على أن جوهر الروح معنى مغاير لجوهر الجسد .

الحجة الخامسة : قوله تعالى : (ونفْس وما سَوَّاها ، فألهمَها فُجُورها وتَقْواها) . وهذه الآية صريحة فى وجود شيء موصوف بالإدراك والتحريك معاً ، لأن الإلهام عبارة عن الإدراك ، وأما الفجور والتقوى فهو فعل ؛ وهذه الآية صريحة فى أن الإنسان شيء واحد ، وهو موصوف بالإدراك والتحريك ، وموصوف أيضاً بفعل الفجور تارة ، وفعل التقوى تارة أخرى ، ومعلوم أن جملة البدن غير موصوف بهذين الوصفين ، فلا بد من إثبات جوهر آخر يكون موصوفاً بكل هذه الأمور .

الحجة السادسة : قوله تعالى : (إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً) فهذا تصريح بأن الإنسان شيء واحد ، وذلك الشيء هو المبتلى بالتكاليف الإلهية والأمور الربانية ، وهو الموصوف بالسمع والبصر ، ومجموع البدن ليس كذلك ، وليس عضواً من أعضاء البدن كذلك ، فالنفس شيء مغاير لجملة البدن ، ومغاير أجزاء البدن ، وهو موصوف بكل هذه الصفات .

واعلم أن الأحاديث الواردة فى صفة الأرواح قبل تعلقها بالأجساد ، وبعد انفصالها من الأجساد كثيرة ، وكل ذلك يدل على أن النفس شيء غير هذا الجسد ، والتعجب ممن يقرأ هذه الآيات الكثيرة ، ويروى هذه الأخبار الكثيرة ، ثم يقول : توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وما كان يعرف الروح ، وهذا من العجائب » .

* * *

ويقرر علماء الإسلام كالغزالى والرازى وغيرهما أنه كلما قوى البدن بشهواته ، وتوسع فى ملذاته ، ضعف الروح عند صاحبه ، والعكس بالعكس ، ولذلك يقررون أن أصحاب الرياضيات النفسية والمجاهدات الروحية ، كلما أمعنوا فى قهر القوى البدنية وتجويع الجسد ، قويت قواهم الروحانية ، وأشرقت نفوسهم بالمعارف الإلهية ؛ وكلما أمعن الإنسان فى الأكل والشرب وقضاء الشهوة الجسدية صار كالبهيمة ، وبقى محروماً من آثار العقل والفهم والمعرفة والإشراق الروحى .

ولحجة الإسلام الغزالى تقسيم للأرواح البشرية ، فهو يرى أنها تنقسم إلى خمس مراتب :

المرتبة الأولى : هى مرتبة « الروح الحساس » ، وهو الذى يتلقى ما توردده

الحواس الخمس ، وكأنه أصل الروح الحيوانى وأوله ، إذ به يصير الحيوان كائناً حيًّا ، وهذا الروح موجود عند الصبى الرضيع .

والمرتبة الثانية : هى مرتبة « الروح الخيالى » ، وهو الذى يستثبت ما أوردته الحواس ، ويخزنه لديه ، ويحفظه عنده ، ليعرض على « الروح العقلى » الذى يوجد فوقه ، عند الحاجة إلى ذلك . وهذا الروح الخيالى لا يوجد عند الصبى الرضيع فى أول نشأته ، ولذلك نرى الرضيع يولع بالشىء ليأخذه ، فإذا غاب عنه نسيه ، ولم تنازعه نفسه إليه ، حتى يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غاب عنه الشىء بكى وطلبه ، وذلك لبقاء صورته محفوظة فى خياله . وهذا قد يوجد عند بعض الحيوانات دون بعض ، فهو لا يوجد مثلا عند الفراش المتهافت على النار ، ولذلك يقذف بنفسه على النار لشغفه بالضياء ، فيظن أن السراج كوة مفتوحة إلى ضوء النهار ، فيلقى نفسه عليه فيتأذى به ، ولكنه يعاود ذلك مرة بعد أخرى ، ولو كان عنده ذلك الروح الحافظ للصور لما عاد ؛ ولكن الكلب إذا ضربه شخص بالعصا ، ورأى العصا مرة أخرى ، حذرها وهرب منها .

والمرتبة الثالثة : مرتبة « الروح العقلى » الذى يدرك به الإنسان المعانى الخارجة عن الحس والخيال ، وهو الجوهر البشرى الخاص ، ولا يوجد عند البهائم ولا عند الأطفال ، وتتسع مدركات هذا الروح ومعارفه الكلية إذا ترجح نور العقل على نور العين .

والمرتبة الرابعة : هى مرتبة « الروح الفكرى » وهو الذى يحصِّل العلوم والمعارف العقلية المحض ، فيوجد بينها تأليفات وازدواجات ، ويستنبط منها معارف شريفة ، ويستنتج منها معقولات جديدة ، ويظل يتزايد فى ذلك إلى ما شاء الله .

والمرتبة الخامسة : هى مرتبة « الروح القدسى السوى » ، وهو الروح الذى يختص به الأنبياء وبعض الأولياء ، وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة ، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر عنها الروح العقلى والروح الفكرى ، وإليه الإشارة بقول الله تبارك وتعالى : « وكذلِكَ أوْحَيْنا إلَيْكَ رُوحاً مِنْ أمْرِنا ، ما كُنْتَ تَدْرِى ما الكِتابُ ولا الإيمانُ ، ولكنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا ، وإنَّك لتَهْدِى إلى صِراطٍ مُسْتقيمٍ . صِراطِ اللهِ الَّذِى لهُ ما فى السَّمواتِ وما فى الأرْضِ ، ألاَ إلَى اللهِ تصير الأُمُورُ » (الشورى ٥٢ ، ٥٣) .

* * *

وقد يتساءل متسائل عن مصير الأرواح بعد وفاة أرواحها .

إن المفهوم من النصوص الدينية أن الروح تفارق جسد صاحبها عند موته ، ولكن تظل لروحه صلةٌ ما بهذا الجسد ، وتصور حقيقةِ هذه الصلة ليس فى طاقة الإنسان ، ولما كانت الأرواح مختلفة الدرجات والمناصب ، وكان منها أرواح أخيار ، وأرواح أشرار ، فإن مصير الأرواح بعد الموت يختلف ، فقد أخبرت السنة النبوية المطهرة مثلا أن أرواح الشهداء تكون فى أجواف طيور خضر تطير تحت العرش ، وقد جاء فى كتابى « أدب الأحاديث القدسية » أنه لما أصيب من أصيب من المسلمين فى غزوة أُحد ، جعل الله تعالى أرواحهم فى طيور خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم ، قالوا : من يبلِّغ إخواننا عنا أنَّا أحياء فى الجنة نُرْزَق ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال لهم ربهم : أنا أبلغهم عنكم . وأنزل الله فى ذلك قوله : « ولا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ

اللهِ أمْواتاً بلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحينَ بِما آتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ويَسْتَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِم ألاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وفَضْلٍ وأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْرَ المُؤمِنين » . (آل عمران الآيات ١٦٩ - ١٧١) .

ويستنبط بعض الكاتبين عن الروح من النصوص الدينية أن أرواح الأنبياء والرسل تكون فى أعلى عليين ، فى الملأ الأعلى ، وبعض أرواح الشهداء تسرح فى الجنة كما تشاء ، وبعض الأرواح يكون موقوفاً على أبواب الجنة ، وبعض الأرواح يكون محبوساً فى الأرض ، والأرواح المتشابهة أو المتقاربة تتدانى وتتلاقى .

وإذا كان للروح تعلقها بصاحبها منذ البداية ، فلها تعلقها به وهو ما زال جنيناً فى بطن أمه ، ولها تعلقها به وهو حى يسعى فى الدنيا ، ولها تعلقها به فى أثناء نومه ، ولها تعلقها به أيضاً وهو فى المرحلة البرزخية ، ما بين الدنيا والآخرة ، أو ما بين الموت والبعث ، ولقد شفت السنة المطهرة نفوسنا فى هذا المجال بحديث جليل فيه تفصيل .

فقد روى البراء بن عازب قال : كنا فى جنازة فى بقيع الغَرْقَد (اسم مكان) فأتانا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير ، وهو يلحد له ، فقال : أعوذ بالله من عذاب القبر (ثلاث مرات) إن العبد المؤمن إذا كان فى إقبال من الآخرة ، وانقطاع من الدنيا ، نزلت إليه ملائكة كأن وجوههم الشمس ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجىء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الطيبة ، اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان ، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من السِّقاء ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها

فى ذلك الكفن وذلك الحنوط ، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وُجدت على وجه الأرض .

فيصعدون بها ، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب ؟

فيقولون : روح فلان بن فلان ، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا ، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتحون له فيفتح له ، فيشيعه من كل سماء مقرَّبوها إلى السماء التى تليها .

إلى أن يقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى عليين ، وأعيدوه إلى الأرض ، فإنى منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ، ومنها أخرجهم تارة أخرى .

فتعاد روحه فى جسده ، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟

فيقول : ربى الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : دينى الإسلام .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله .

فيقولان له : وما علمك بهذا ؟

فيقول : قرأت كتاب الله ، فآمنت به وصدقت .

فينادى منادٍ من السماء أن صَدق عبدى ، فأفرشوه من الجنة ، وافتحوا له باباً من الجنة . فيأتيه من ريحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدَّ بصره ، ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسرك ، هذا يومك الذى كنت توعد . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه الذى يجىء بالخير .

فيقول أنا عملك الصالح . فيقول : ربِّ ، أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح (١) ، فيجلسون منه مدَّ البصر ، ثم يجىء مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه ، فيقول : أيتها النفس الخبيثة ، اخرجى إلى سخط من الله وغضب . فتفرق فى جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفُّود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وُجدت على ظهر الأرض ، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الخبيث ؟ . فيقولون : فلان بن فلان ، بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا ، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا ، فيستفتح له فلا يفتح .

ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قول ربه : « لا تفتَّح لهم أبْواب السَّماءِ ولا يَدْخُلونَ الجنَّةَ حتى يَلِجَ الجمَلُ فى سَمِّ الخِيَاطِ » . (الأعراف الآية ٤٠) .

فيقول الله تبارك وتعالى : اكتبوا كتابه فى سجين (٢) ، فى الأرض السفلى ، فتطرح روحه طرحاً ، ثم قرأ النبى : « ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فكأنَّما خَرَّ مِن السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيرُ أو تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مكانٍ سَحِيقٍ » (الحج الآية ٣١) . فتعاد روحه فى جسده ، ويأتيه ملكان فيقولان له : من ربك ؟ . فيقول : هاه هاه لا أدرى .

---

(١) المسوح : ثياب خشنة .

(٢) سجين : ديوان الشر . وقيل هو اسم علم للنار . وقيل هو الحبس .

فيقولان : ما هذا الرجل الذى بُعث فيكم ؟ . فيقول : هاه هاه لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء أن كذب عبدى ، فأفرشوه من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرها وسمومها ، ويُضَيَّق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوؤك ، هذا يومك الذى كنت توعد .

فيقول : من أنت ، فوجهك الوجه الذى يجىء بالشر ؟ !

فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب لا تقم الساعة ! !

ويدل هذا النص على أن الروح لا تنفصل انفصالا تامًّا عن صاحبها بعد موته ، بل يكون لها نوع تعلق به ، وقد جاء حديث آخر يؤكد ذلك ، قال فيه : « إذا حُمل الميت على نعشه رفرف روحُه فوق النعش ، ويقول : يا أهلى ويا ولدى ، لا تلعبن بكم الدنيا كما لعبت بى ، جمعت المال من حله وغير حله ، فالغنى لغيرى ، والتبعة علىَّ ، فاحذروا مثل ما حل بى » !

كما أن هذا النص يشير إلى حالة النعيم ، أو حالة الشقاء التى يكون عليها فى المرحلة البرزخية بين الدنيا والآخرة ، وهو يشير كذلك إلى حساب القبر وعذابه أو نعيمه ، ويؤيد ذلك من القرآن قول الله تعالى عن آل فرعون « وحَاقَ بآل فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذاب . النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها غُدوًّا وعَشِيًّا ، ويَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العذاب » « سورة غافر ٤٥ ، ٤٦ » فعرضهم على النار غدوًّا وعشيًّا لابد أن يكون قبل يوم القيامة ، والحديث عنهم بعد أن هلكوا ، فلزم أن يكون هذا العرض على النار بعد الهلاك وقبل البعث ، فلم يبق إلا أن يكون فى فترة البرزخ .

وكذلك جاء الحديث يقول : « القبر إما روضة من رياض الجنة ، وإما

حفرة من حفر النار » . وقد يؤكد هذا أنه جاء فى الحديث المتفق عليه أن النبى عليه الصلاة والسلام وقف على المكان الذى دفنوا فيه قتلى غزوة بدر من المشركين ، وجعل يناديهم بأسمائهم : يا فلان بن فلان ، ويا فلان بن فلان ، هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقًّا ؟ . فقال له عمر : يا رسول الله ، ما تخاطب من أقوام قد جيَّفوا (أى ماتوا وصاروا جيفة) فأجابه النبى صلى الله عليه وسلم : والذى بعثنى بالحق ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون جواباً .

* * *

والذى أفهمه من خلال الفكر الإسلامى أن الروح موجودة ، ولكن جوهر حقيقتها غير معروف لنا ، وأنها أسبق وأبقى وأشرف من المادة ، وأننا نستطيع التعرف إلى كثير من آثارها وظواهرها ، وأن آثارها تظهر لنا حين اتصالها بالجسد ، وأن الجسد لا قيمة له دون الروح ، وأن البحث قد شغل – وسيظل يشغل - العلماء والحكماء والشعراء والأدباء إلى ما شاء الله ، وكأن للروح جاذبية قاهرة تشدنا إليها ، فنسارع نحوها ، وكلما خطونا نحوها مرحلة بعدت عنا مراحل ، وتركت لنا على طريق البحث أشياء من « مخلفاتها » . وكأنها حسناء تبرقعت بحجبها وأستارها ، ولكن أشعة ساطعة من بهائها تنفذ من خلال حجبها فتشاغل أبصارنا وبصائرنا ، فنجد المسير إليها ، والطريق طويل طويل طويل .

وهذا مثلا هو الشيخ الرئيس الفيلسوف العالم ابن سينا : أبو على الحسين بن عبد الله المتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة . يصوغ بضعة وعشرين بيتاً فى موضوع الروح ، وتسمى هذه الأبيات « عينية ابن سينا فى الروح » ، فتملأ الدنيا وتشغل الناس ، وتوضع عليها الشروح بعد

الشروح . وتصاغ فيها المعارضة بعد المعارضة ، وهذه الأبيات تؤكد لنا أن الروح جذابة ذات بهاء وسناء ، وأنها ممنعة مبرقعة ، وأنها كما أشار ورمز فى قصيدته ، وكما صورت « دائرة المعارف » – جوهر قائم بذاته ، لا عرض من أعراض الجسم . ولعل أول شىء ينفى عنها « العرضية » كونها مستقلة تمام الاستقلال عن الجسم ، فبينما نجد الجسم محتاجاً إليها لا يتعين ولا يتحدد إلا إذا اتصلت به نفس – أو روح – معينة ، نجد النفس يمكنها أن تعيش منفردة ، لأنها جوهر بسيط ، والبسيط لا يفسد .

إن علاقة الروح بالجسم علاقة جوار عرضى،لا علاقة اتحاد ذاتى ، وكما هبطت الروح إلى الجسم من الملأ الأعلى وهى كارهة ، تفارقه عند الموت وهى كارهة ، لأنها ألفته مع طول الجوار . وكأن الجسم سجن كثيف أو قفص ضيق يحول دون بلوغ الروح كمالها . وكأنها لا تألف مجاورة الجسد إلا بحكم الاعتياد ، فإذا فارقته بعد اكتمال ملكاتها العقلية ، وبلوغها الكمال بالتأمل ، انكشف عنها الغطاء وأدركت السعادة .

وما الحياة الدنيا سوى مدرسة أُهبطت الروح إليها ، لتكتسب المطالب العقلية ، فإذا نالت هذه المطالب ، تمتعت بعد الموت بالسعادة الأبدية ، وإذن فسعادة النفوس الطيبة والأرواح الخيرة العارفة هى فى اتصالها بالعقل الفعَّال ، وأما النفوس الشريرة التى ألفت السوء والإثم فإن جزاءها هو العذاب الدائم ، ومن هنا يكون الثواب فى الآخرة متناسباً مع كمال النفس فى الدنيا .

يقول ابن سينا فى قصيدته :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنعِ
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ، ولم تتبرقع
وصلتْ على كره إليك ، وربما كرهتْ فراقَك وهى ذات تفجع

أنفتْ وما أنست ، فلما واصلتْ ... ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهوداً بالحمى ... ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها ... عن مم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل ، فأصبحت ... بين المعالم والطلول الخُضَّع
تبكى إذا ذكرت عهوداً بالحمى ... بمدامع تهمى ، ولم تتقطع
وتظل ساجعةً على الدِّمن التى ... درستْ بتكرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشَّرَكُ الكثيف ، وصدَّها ... قفص عن الأوج الفسيح المربع
حتى إذا قرب المسير عن الحمى ... ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع
وغدت مفارقةً لكل محلَّف ... عنها حليف الترب غير مشيَّع
سجعت ، وقد كُشف الغطاءُ فأبصرت ... ما ليس يُدْرَك بالعيون الهُجَّع
وغدت تغرِّد فوق دوحة شاهق ... والعلم يرفع كلَّ من لم يرفع
فلأى شيء أهبطت من شامخ ... عالٍ إلى قعر الحضيض الأوضع ؟
إن كان أهبطها الإله لحكمة ... طُويت على الفذ اللبيب الأروع
فهبوطها إن كان ضربة لازب ... لتعود سامعة لما لم تسمع
وتعود عالمة بكل خفية ... فى العالمين ، فحرقها لم يرقع
وهى التى قطع الزمان طريقها ... حتى إذا غربت بغير المطلع
فكأنها برق تألق بالحمى ... ثم انطوى فكأنه لَمَ يلمع
أنعمْ برد جواب ما أنا فاحص ... عنه ، فثار العلم ذات تشعشع

وهذه الأبيات فيها من الرموز والإشارات عن الروح ومبدئها العلوى ، وهبوطها إلى عالم الأشباح والأجساد ، ورسالتها فى هذا العالم ، وعودتها إلى علوها ، مالا يكفى فيه ما قدمنا من تلخيص ، فمن أراد أن يسبح فى عالم الروح فليلجأ إلى شرح من شروح هذه العينية وهى كثيرة .